معرض

آرا غولر أو عين إسطنبول في متحف الفن الإسلامي

كاميرا بعين التاريخ أولاً

«على خُطى آرا غولر»، معرض استعادي تقدّمه متاحف قطر بالشراكة مع متحف آرا غولر في تركيا، لأعمال أحد أبرز أسماء التصوير الفوتوغرافي في القرن العشرين يتيح لزائره التأمل في التقاء الفن مع التاريخ. يستمر المعرض حتى التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر المقبل

الدوحة ـ **محمد هديب**

لم يعش آرا غولر في مكان آخر سوى إسطنبول. لذلك إن هذه المدينة التي يمكن أن تقطع مضيقها بقارب الكاياك لتنتقل بين قارتين في بلد واحد، تكفي لتكون عالمه، ولتظل رفيقة أعظم مصوّر فوتوغرافي في تركيا منذ منتصف القرن العشرين. يجوب العالم ويلتقط مليوني صورة، لكن جوهرتها خصوصاً بالأسود والأبيض كانت من نصيب تلك المدينة التي منحته لقب «عين إسطنبول». نحن أمام إطلالة أولى أتاحتها متاحف قطر بوصفها أول مؤسسة ثقافية عربية تتيح التعرف إلى الألبوم الواسع في معرض «على خُطى آرا غولر» الذي افتتح يوم الجمعة الماضي، ويستمر حتى 9 تشرين الثاني/نوفمبر المقبل بالشراكة مع متحف آرا غولر في تركيا. ويصادف يوم 16 أغسطس/ آب الجاري مرور 96 عاماً على ميلاد غولر (1928-2018)، سليل العائلة الأرمنية الذي ترك مليوني صورة، وكان طوال ستة عقود مدافعاً عن المعنى الصحافي لما ينبغي للصورة أن تنتمي إليه، بما يجعلها فاعلاً في التاريخ، في أساسه التوثيقي قبل أي شيء.

وجود تاريخي

في الطابق الرابع من متحف الفن الإسلامي تظهر تركيا المعاصرة من خلال حجرة الكاميرا، بما فيها من طبقات تاريخية لآثار حضارية غابرة، ومن هوية مكانية وإنسانية قلقة كانت تتأكد من وجودها الجديد بعد زوال الدولة العثمانية، والتطورات المتسارعة التي جعلت غولر مسكوناً بالحنين المضني إلى صور يفاخر المؤرخون بأنهم ما زالوا وسيبقون يستعملونها دليلاً على الوجود التاريخي في مرحلة ما وانقضت.

وإذا خطفتَ نظرة من الأعلى نحو الطابق الثالث، فثمة القسم العثماني ضمن مقتنيات متحف الفن الإسلامي، وقد أضاف منشئو المعرض بعض الصور التي صوّرت فيها إسطنبول على يد رواد التصوير في القرن التاسع عشر، مع بعض آلات التصوير القديمة، مثلما استعيرت بضع لوحات من متحف الفن العربي الحديث، خصوصاً منها لفخر النساء زيد إلى جانب صورتها الفوتوغرافية بعين غولر.

ميراث روحي

على النبض ذاته يمكن اعتبار المدينة ميراثاً روحياً من المصور إلى مواطنه الروائي أورهان باموق الذي كان طفلاً لم يتجاوز السنوات الخمس، حين سطع نجم غولر وباتت وسائل الإعلام العالمية ووكالات الصور تتسابق على صوره. كبر باموق حائز جائزة نوبل 2006، وكان لا بد أن يتأمل ذاته في صور غولر. تغذت أخيلة كتاب عديدين مثل كونراد ونابوكوف ونايبول على الهجرة والاغتراب غذاء لا يأتي من الجذور، إنما من خلال قطعها.

هذا ما يؤمّن عليه أورهان باموق ليصل في كتابه «إسطنبول الذكريات والمكان» إلى القول إن خياله لم يكن ليقبل سوى أن تكون إسطنبول مدينته وقدره. يتأمل باموق صورة

من صور معرض آرا غولر في الدوحة (جيلالي بريني)

بالأسود والأبيض. هو كذلك جاب الدنيا ليعود دائماً إلى ملعب روحه. هنا بيت جدته لأمه في شيشلي، الحيّ الإسطنبولي الشهير بقسمها الأوروبي، وفي الحيّ ذاته متحف آرا غولر. ينظر باموق إلى الصورة فيكتب في كتابه «ينتابني حين أشاهد حشود الأبيض والأسود تندفع عبر الشوارع المظلمة في أمسية شتوية شعور عميق بالألفة». كانت صورة التقطها آرا غولر «بشكل رائع (..) ولا يقتصر ما يشدني على الشوارع المرصوفة بالحجارة والأرصفة، أو القضبان الحديدية على النوافذ أو البيوت الخشبية الآيلة إلى السقوط. ما يشدني أكثر هو الإيحاء بأن هذين الشخصين اللذين يجران وراءهما، وقد حلّ المساء للتو، ظلالاً طويلة في طريق العودة إلى البيت يلفان المدينة كلها بعباءة الليل».

أفروديسياس

على خطاه سيعرف العالم، بل قبلهم الأتراك لذة الانتباه إلى الموجود. أحياناً تفعل المصادفة فعلها، وللمصادفة قانونها السري. فمدينة أفروديسياس الأثرية موجودة، إلا أنها مغفلة تماماً. وكانت رحلة غولر إلى مدينة أيدين على بحر إيجه عام 1958 من أجل تصوير افتتاح سد كيكير لصالح مجلة «حياة». وفي طريق عودته في وقت متأخر ذلك المساء، ضل سائقه الطريق، فقرر كلاهما قضاء الليلة في أقرب قرية يصادفانها. وبينما هما يستفسران في المقهى المحلي عن مكان للمبيت، لاحظ غولر رجالاً يلعبون الورق على تاج عمود قديم، ما أثار اهتمامه، وفي صباح اليوم التالي اصطحبه أطفال القرية في جولة حول المنطقة، فصوّر المعالم والعناصر المعمارية المنتشرة هناك.

أعظم مصوّر فوتوغرافي تركي منذ منتصف القرن العشرين

ابن العائلة الأرمنية ترك مليوني صورة تجمع الفن بالتاريخ

وفور عودته إلى إسطنبول، بحث غولر فوجد أنها هي مدينة أفروديسياس مركز العبادة القديم المخصص للإلهة أفروديت التي ازدهرت في أواخر العصر الهلنستي والروماني، إلى جانب ذلك، كانت أفروديسياس موطناً لمحاجر الرخام الغنية ومدرسة للنحت. استعان الآثاريون والمؤرخون بهذه الصور حتى أثمر الحفر عن خروج المدينة وإدراجها من ثم على قائمة اليونسكو للتراث العالمي عام 2017.

هذا الإنجاز ومعه رحلته إلى جبل نمرود هما من الأعز على قلبه. وقد كانت رحلته إلى الجبل أيضاً في الستينيات، وصوّر غولر هذا المعلم المدرج على قائمة اليونسكو عام 1987 برفقة التلفزيون الفرنسي، وهو يضم مقبرة المعبد وبيت الآلهة، ويشتهر بتماثيله العملاقة، بيد أن رؤوس هذه التماثيل مفصولة عن أجسادها بفعل زلازل ضربت المنطقة على مر السنين.

صحبة طيبة

حين أصبح غولر قطباً يغامر في تصوير مناطق النزاع أو رصد الحياة اليومية والعمارة والآثار بعين مثقفة، حظي بالثقة الشخصية من كبار الكتّاب والفنانين والسياسيين والفلاسفة وغيرهم من الشخصيات البارزة في عصره، وكثير منهم كانوا أصدقاء رافقوه في حياته.

يقدم لنا القسم المعنون «بصحبة طيبة» مجسماً لكتاب مصنوع يدوياً بعنوان «أساطير الدنيا السبع» ويضم صوره الملتقطة للفنانين التشكيليين الإسبانيين بابلو بيكاسو، وسلفادور دالي، والبيلاروسي الفرنسي مارك شاغال، والكاتب المسرحي الأميركي تينيسي ويليامز، والفيلسوف البريطاني برتراند راسل، والشاعر الفرنسي لويس أراغون، والكاتب المسرحي الأميركي الأرمني وليام ساريوان. غير هؤلاء من خارج كتاب الأساطير التي أرادها في كتابه بما فيه من كلمات وتوقيعات هذه الشخصيات، يمتلئ هذا القسم بصور كثيرين كالممثل الأميركي داستن هوفمان، والشاعر الفرنسي جاك بريفير، والممثلتين الإيطاليتين جينا لولو بريجيدا وصوفيا لورين، والفنان التشكيلي التركي عابدين دينو، وزميله في حقل التصوير الفوتوغرافي الفرنسي مارك ريبو.

يافوز

إذا كان المرء لا ينتسب إلى مكان لا موتى له تحت ترابه كما في رواية «مئة عام من العزلة» فإن المكان الذي ينتمي إليه غولر هو الذي يحفظ الذاكرة، وعليه أن يبقى العنوان البريدي للأحياء وللغائبين.

ولطالما أبدى أسفه لما تعرضت له مدينته من تجريف حداثي تحوّلت في صوره إلى نزيف رومانسي. وفي واحدة من مواجهاته الموجعة عاين «نهاية البطلة»، وهذا عنوان فيلمه التجريبي (1973-1975)، عن تفكيك يافوز، تلك السفينة الحربية التاريخية التي لعبت دوراً محورياً في دخول الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى (1914-1918). الفيلم عبارة عن كولاج سينمائي يمزج بين مصادر متنوعة بصرية مع موسيقى تصويرية للموسيقي الشعبي الشهير روحي سو (1912- 1985) كانت تشبه صياح الفقد والتعبير عن الهاوية.

فقد صدم غولر حين علم بتفكيك هذا التراث العسكري ليعاد تدويره فقط من أجل إنشاء مصنع لشفرات الحلاقة. تصدرت الفيلم عبارة «في كل زمان يصنع الناس أبطالاً، لينقلبوا عليهم في ما بعد ويدمروهم بمحض إرادتهم. لماذا إذن فقد كل هؤلاء حياتهم؟ ولماذا كتبت الأغاني تكريماً ليافوز؟ وإذا كانت هذه السفينة حقًا بطلة، فكيف لها أن تفقد مكانتها وتُدمر هكذا؟».

شارك في الفيلم ثلاثة مهرجين إضافة إلى الممثلين الذين رأى غولر أنهم مشاركون أصيلون وهم: الصدأ والصوت والشمس، والحديد والخشب والمسامير.

بؤرة العدسة

ولد آرا غولر لعائلة أرمنية في إسطنبول عام 1928، ورحل فيها عام 2018. في بداية حياته أحب السينما ودرس المسرح والتمثيل، ومن ثم عمل مصوراً في صحيفة «إسطنبول الجديدة»، بينما كان يتابع دراسته في كلية الاقتصاد في «جامعة إسطنبول»، ليلمع نجمه في ما بعد وتتناقل صوره صحف العالم. مسيرة حافلة يُجمَع على كون صاحبها، الذي كانت إسطنبول بؤرة العدسة في فنّه، أعظم مصوّر فوتوغرافي تركي في القرن العشرين.

إضاءة

عندما كانت نقطة الدم تُحرّك الشوارع

الغضب في مواجهة المذبحة

إذا لم تُحرّكنا المجزرة، بكلّ ما فيها من أشلاء ودم وصرخات، فمن أين لنا أن نخترع أسباباً جديدة لكتلة اللهب التي تُعيد الاعتبار للغضب؟

أمير داود

لا يُمكن للغضب، باعتباره حالة شعورية خاطفة ومُعاكسة، إلّا أن يكون سريعاً ويتحرّر من حسابات الربح والخسارة، لا يُمكن لهذه الكرة الملتهبة بالرفض والاحتجاج إلّا أن تولَد أمام أيّ فعل يعجز العقل عن تدارك حدوده بالمنطق والحسابات، ولا يمكن أيضاً، لهذا الذي يُسمّى غضباً إلّا أن يكون نقيضاً للظلم والكذب جهاراً نهاراً على مسامع المقهورين المجروحين، وإلّا فكيف نُفسّر اعتياد الدم إلى هذا الحدّ، وامتصاص الصدمة إلى هذا الحدّ، وتبلّد المشاعر أمام المجزرة التي لا تتوقّف منذ عشرة شهور من دون أن نطرح سؤالاً عن جدوى الغضب في مواجهة المذبحة ونحن نشهد دراماتيكية تحطُّم القوانين والمبادئ والتشريعات أمام العين.

وإذا لم تكن المجزرة، بكلّ ما فيها من صرخات وأشلاء ودم وبقايا، وهي تتكرّر وتتكاثر وتتوسّع وتمحو في طريقها كلّ من يقف أمامها، سبباً لهذا الغضب، فمن أين لنا أن نخترع أسباباً جديدة وواضحة لكتلة اللهب التي من شأنها أن تُعيد الاعتبار للغضب في شكله الأوّلي قبل أن تتهافت عليه مفاهيم السيولة كلّها على حدّ توصيف عالم الاجتماع البولندي زيغمونت باومان، الذي أشار قبل الجميع إلى أنّ سيولة أزماننا الحديثة قد طاولت كلّ شيء، وأحالت كلّ شيء إلى أشكال جديدة كثيرة التبدّل ومفرطة التحوّل ولا تمنح الواقفين أمامها معنىً جديراً بالاستحقاق سوى المواقف المستهلكة والمشاعر المستهلكة والصورة السائلة العصية على القبض والفهم والإدراك.

أتذكّر هذه الأيام، من جملة ما أتذكّر، أزماناً سبقت وسائل التواصل الاجتماعي التي علّبت الغضب على شكل مناشير تنزّ بلاغةً تصرخ وتنادي في كردورات فارغة، واستعاضت عن الصراخ في الشارع بصفصفة كلمات لا تُغني ولا تسمن من جوع، ومنحت الجماهير الطويلة العريضة شعوراً واهماً وخادعاً بفعل شيء ما، على شكل اصطفافات مشوّهة بالادّعاء ومحمولة على روح الاكتفاء والإدانة المجّانية.

وإذا كانت وسائل التواصل الاجتماعي قد أثبتت نجاعتها في التجييش من أجل الخروج إلى الشارع في أزمنة مضت، فقد اكتفت هذه الأيام بالتجييش من دون الحاجة إلى الشارع، وبالصراخ من دون صوت، وبالعتب من دون غضب، وبالانتظار السلبي من دون رغبة في المبادرة. هكذا أحالت المشاعر الإلكترونية الناس إلى كتل متخمة بالتمارين اللغوية والبلاغة التي لا تصل إلى أحد، ولا تُلقي ولا تزيح حجراً عن الطريق.

ما زلت أتذكّر أزمنة خلت قبل أن تتسلّل إلكترونية المشاعر ومجّانية المواقف والنداءات الفراغية إلى القلوب، عندما كان للغضب معنىً آخر يُمجّد العناد ويُعلي من الفوضى ويكسر الرتابة التي لا تليق بالدم ولا البرودة التي تواجه الإبادة والمذبحة، عندما كانت نقطة الدم تُحرّك الشوارع وتُغلق الطرق وتمنح الهجوم معنىً آخر وبُعداً آخر وفكرة جديدة. لكن ثمّة ما يدفع إلى التساؤل عن سرّ هذا الصمت، وسرّ هذا البرود إزاء اندثار القصص والأرواح والأبنية بكلّ هذا الوضوح وبكلّ هذه الفجاجة التي تحتاج إليها الروح من أجل أن تنتفض وتتحرّك وتتقدّم إلى الأمام، وإزاء انعدام القدرة على الإجابة والعجز عن التحليل وإذ يمرّ في ذهني الآن قول الفيلسوف الغيني ديموا: «لقد قامت الثورات على فكرة الغضب، واندثرت عندما استدخلت الحكمة الباردة نفسها في جنبات الثورة» لأنّ الحكمة الباردة تضع مرآة مسطّحة أمام وجه الغضب، تجعله يفكّر ويُعقلن ويراجع الحسابات، في مقابل اللحظة التي تدين العقلنة وتُحطّم الحسابات وتُعلي من الدم المسفوك في وضح النهار.

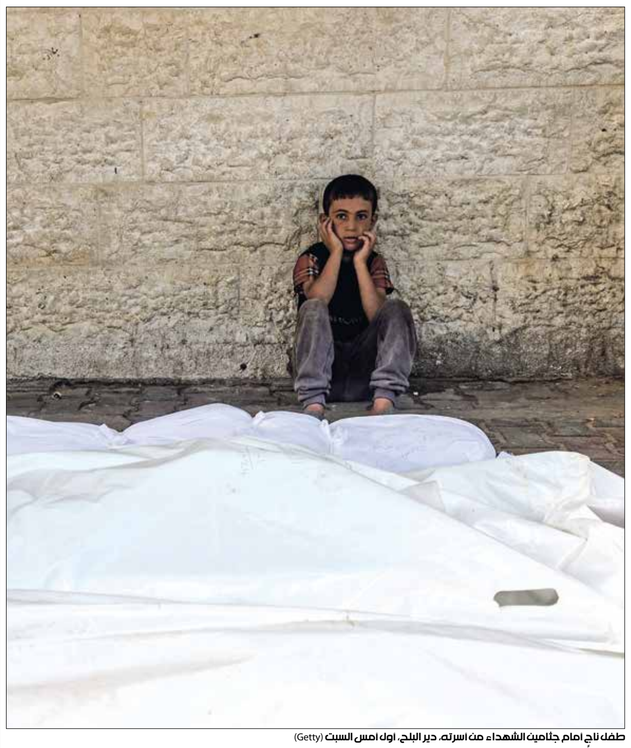

قامت الثورات على فكرة الغضب واندثرت بسبب الحكمة

لم يكن للمذبحة أن تستمرّ وتستطيل مثل الظلال أسفل الشمس لو كان للغضب شكل غير هذا الشكل، ولو لم تعصف بالغاضبين المتخمين بفانتازيا الخلاص الأرضي القادم من الخارج، مرّة على شكل شرطي العالم ومرّة على شكل سوبرمان الأبيض الذي اعتراه العري والانكشاف أمام أبسط ريح هبّت من وديان غزّة وشواطئها وشوارعها وما بقي من ركام ستظل تذكّر الدارسين والمنتبهين والعابرين على الصفحات بالمجزرة التي مرّت ولم يُوقفها أحد، أبداً.

(كاتب من فلسطين)

طفل ناجٍ أمام جثامين الشهداء من أسرته، دير البلح، أول أمس السبت (Getty)

رحيل

عقدان من الانشغال البحثي بأدب المقاومة في فلسطين

يوسف الكحلوت شهيداً

الشهيد يوسف الكحلوت

انشغل الأكاديمي الشهيد بموضوع أساسي خصّص له أكثر من دراسة، يتمثّل في توثيق أدب المقاومة، ودرْس مضامينه واتجاهاته وأبعاده الفنّية

غزّة ـ **العربي الجديد**

في مدرسة «التابعين» بشارع النفق في حي الدرج شرقي مدينة غزّة، استشهد، فجر السبت الماضي، أستاذ الأدب والنقد يوسف شحادة الكحلوت (1961 - 2024) مع أكثر من مئة شهيد فلسطيني، في مجزرة جديدة ارتكبها الاحتلال الإسرائيلي تُضاف إلى جرائم الإبادة الجماعية التي تتواصل منذ عشرة أشهر. انشغل الأكاديمي الشهيد بموضوع أساسي خصّص له أكثر من كتاب ودراسة خلال العقدين الماضييْن، يتمثّل في توثيق أدب المقاومة في فلسطين، ودرْس مضامينه واتجاهاته وأبعاده الفنية، مع تركيزه على التجارب الجديدة التي ترتبط بقضايا اللحظة الراهنة ومناخاتها، إلى جانب اهتمامه بأبحاث أُخرى مثل البلاغة اللغوية والأدب العربي والشعر والنثر القديم.

في كتابه «مقاربات نقدية في شعر المقاومة» (2011)، حلّل الكحلوت نماذج شعرية برزت خلال انتفاضة الأقصى التي اندلعت في 28 أيلول/ سبتمبر 2000، واستمرّت لأكثر من أربع سنوات، حيث تستحوذ صورة القدس ورمزيتها على جزء كبير منها، لكن الكحلوت يمسك بملامح تتعلّق بسياق تاريخي يستحضره معظم الشعراء الذين لا يمكن فصل أحداثٍ معاصرة، أو أقدم تعود إلى مئات السنين، عمّا تتعرّض له المدينة اليوم من تهويد وسعي محموم لتغيير هويتها الثقافية وتركيبتها الديموغرافية ومعالمها التاريخية. كما وقف الكحلوت عند التعبير السردي الحكائي في العديد من قصائد الانتفاضة، في ترسيخ لبعد ملحمي يذكّر بسيرة أبي زيد الهلالي، وتأكيد استمرارية الإنسان وحضوره في فلسطين، من دون إغفال المعنى الذي يُعدّ هدفاً رئيسياً في الكتابة لدى هؤلاء الشعراء، عبر تقديمهم منظوراً أعمق للصراع، يعود إلى ما قبل وعد بلفور، مع بدء الهجرات اليهودية المنظّمة إلى فلسطين، ووضع خطط مدروسة تهدف إلى فرض استيطان إحلالي، يقوم الاحتلال على تنفيذها خلال العقود الماضية. وتطرّق أيضاً إلى تفصيل شعراء الانتفاضة لجميع الجرائم الصهيونية، في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية، وأنّ الخلاص الوحيد للتحرّر يكمن في المقاومة، وليس بالتفاوض الذي يأتي دائماً بمزيد من التنازلات والخسارات، كما اعتنى الكحلوت بتقنيات القصيدة وفنّياتها، والصور التي يوظّفها أصحابها، حيث اللغة والأسلوب يصوغان المعاني والأفكار.

وقف عند التعبير السردي الحكائي في العديد من قصائد الانتفاضة

لا يمكن التغاضي عن توجهات الكحلوت، وخلفيته الدينية، في طبيعة اختياراته للقصائد التي يدرسها، وإن كان بعضها لشعراء لا يمثّلون تيارات وتوجّهات إسلامية، ناهيك عن تسجيله التعبيرات الأدبية المرافقة لفترة مهمّة في التاريخ الفلسطيني المعاصر. يحضر أدب المقاومة كذلك في كتابه «قراءات نقدية» الذي أصدره سنة 2008، وقدّم له بالإشارة إلى أنّ القضايا والمضامين التي شغلت الشعراء الفلسطينيّين في النصف الأوّل من القرن العشرين، ومنهم إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود، هي ذاتها التي تشغل شعراء اليوم، مع اختلاف في طرائق التعبير عنها. ترك يوسف الكحلوت دراسات أُخرى؛ من أبرزها: «محمد العدناني شاعراً (دراسة نقدية)» (2009)؛ وفيه درس خمسة دواوين للغوي والقاص الفلسطيني (1903 - 1981) الذي لم تحظ تجربته الشعرية باهتمام يُذكر، و«الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي- عصر ملوك الطوائف» (2010)، و«علم اللغة الكوني» (2011).

فعاليات

تنطلق صباح الأربعاء، 28 آب/ أغسطس الجاري، في القاهرة، فعاليات الدورة الأُولى من **معرض العاصمة للكتاب**، وتتواصل حتى الثامن عشر من الشهر المقبل. اختير الناقد المصري **سمير سرحان** (1941) شخصية المعرض الذي تحلّ فلسطين ضيف شرف عليه؛ حيث يتضمّن البرنامج الثقافي ندوات حول القضية الفلسطينية.

ضمن فعاليات الدورة الـ 44 من «المهرجان الثقافي» في مدينة منزل بورقيبة في ولاية بنزرت التونسية، يُقام، عند التاسعة من مساء الخميس المقبل، عرض للموسيقي التونسي **محمد علي شبيل** بعنوان **دنيا**. يجمع العرض أنماطاً موسيقية مستمدّة من التراث التونسي تشمل الإنشاد الصوفي والمالوف وغيرها من الأنواع الموسيقية التي تُؤدّى مع قصائد لسيرين الشكيلي.

حتى الرابع والعشرين من الشهر الجاري، يتواصل في «مركز غالواي للفنون» بمدينة غالواي غربي أيرلندا معرض **نهاية العالم الجميلة** للفنّانة الأيرلندية **ميريام دي بوركا** (1972)، الذي افتتح منتصف الشهر الماضي. تضيء الأعمال المعروضة على الدور الذي لعبه الفنّ في إضفاء الشرعية على المشاريع الاستعمارية.

عند التاسعة والنصف من مساء بعد غدٍ الأربعاء، يُقام في «صالون بيروت» بالعاصمة اللبنانية حفل للفنّانة اللبنانية **كريستينا كيروز**. تؤدّي كيروز مقطوعات موسيقية تدمج بين الجاز وقوالب شرقية، ويرافقها العازفون: **آلان مندلق** (بيانو)، و**شارل الهبر** (غيتار)، و**جو خوري** (ساكسوفون)، و**آلان عون** (دوبل باص)، و**حنا يزبك** (درامز).

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

نعمة حسن
روائية

النجاة ليست ترفاً

في الأوقات الصغيرة التي كنا نلعب فيها، قبل النوم بلحظات، قالت أختي زينب فجأة: «أبو رجل مسلوخة خلف الباب». تملّكني الخوف، حاصر وجهي الصغير شكل الرجل الذي لم أره من قبل... فقط تخيّلت كمّ الدماء التي سأراها عندما يقابلني بعكاز. هل سيمسك عكازاً؟ أدركت في ما بعد أنه لن يحتاج إليه فهو خسر جزءاً من لمعان ساقه، والعكاكيز صنعت لردم الهوة في الأرض غير المستوية عند كل خطوة لا لاستعادة لمعان الأشياء.

أصابتني الحمّى لليالي طويلة، كنتُ أرى القدم المشوهة من بين نقاط العرق التي تسيل على عينيّ من أعلى جبهتي. لم أكن أدرك أنّ الجبهة موضع الفكرة الأصلي، ولم تكن أمي لتعلم أنه الخوف الذي يسكن تلك الناصية، ولم أعترف حينها بأنه الخوف. لقد أصبحتُ أخاف أن أنظر خلف الأبواب نصف المفتوحة حتى لا تخرج لي الأرجل الملطخة بالدماء، أو التي فقدت لمعانها.

الحياة في رفح الآن، في لحظة ما قبل النزوح، تشبه الكأس المليئة بالصودا المركزة. إما أن تسكب الكأس كاملةً في جوفك فتحترق، أو تتركها ليسيل وتبقى على عطشك. هل الموت عطشاً أشدّ وجعاً من الاحتراق؟

اشتد على ابني محمود الوجع... أصبح صراخه يُسمع في الحارة ليل نهار... هناك عدّة لحميّات تكبر داخل القولون عنده... هذا ما قاله الطبيب قبل الطوفان... أُجِّلت العملية سبعة أشهر... انتهت فترة التحمل لديه، لم تعد هناك مسكنات تباع في المدينة تُسكت الوجع. يجب أخذ عينة وعلاج الأمر، لا مناظير في المدينة المنكوبة. الخوف من الوجع يجبرك أيضاً على التراجع في أرض المعركة، أو لعن المعركة عدة مرات من دون أن تحمل ذنبها. أسبوع بأيامه السبعة أمضيته داخل ممرات المستشفيات حيث لا مكان للجلوس هناك، ولا مكان للوقوف، فالانتظار ليس حقيقة، بل فكرة إلهاء فقط. سيموت الميتون هذه حقيقة النجاة الوحيدة، أو لعلها المكان الوحيد الفارغ. قال طبيب الباطنية: «لا علاج له عندي» وطبيب الجراحة تهرّب. حاولتُ الاقتتال مع أحد لأجد حلاً لوجع طفلي الذي يكبر أمامي ولا حيلة لدي في السكوت أو التهوين. قلتُ للطبيب: «إذا حدث لابني شيء فسآتي رأساً إليك وأضع رصاصة في رأسك من دون أن يرفّ لي جفن». ردّ علي: «لقد قُتلت كلّ عائلتي في الحرب ولم يعد لديّ شيء لأخسره، فلتفعلي».

بدأت المدينة فجأة تسيل خارج نفسها.

المناطق الشرقية مهددة الآن وعلى جميع سكانها النزوح، هي مناطق غير آمنة هذا ما تقوله المنشورات التي تسقط من الطائرات إلى أرض المعركة من دون أن تنكسر، ثم تسمع على هاتفك كلّ عشر دقائق أسطوانات متكررة تبدأ في استيطان رأسك وبرمجتك على الخضوع للأمر. إنّها زراعة الخوف في أرض المقبرة، تخيل أن تحمل القبور شواهدها وترحل... هذا ما حدث. كلّ المدينة حملت موتها، ومشت نحو قبور لا تعرفها، هنا حتى الجثث تخاف يا صديقي. تسأل طفلتي منة الله: «هل الأمهات يخفن يا أمي؟» وأنا أسأل: «هل الأمهات يموت خوفهن أبداً؟».

الاستعداد لنزوح خامس. أصبح العدّ هنا أمراً تافهاً، الأصابع لن تكون شاهدة فقد أرهقتها كتابة أسماء الموتى وتدلت بلا مبالاة، ولن تجيد إحصاء موتك إن جاء في نزوح تالٍ. بائع البندورة كان أول من غادر المكان، انتزع عريشته على عجل، وحمل حبات البندورة من دون أن يبقي حبة خلفه، فهي تخاف أيضاً من الدبابات، ثم لحق به بائع الفلفل الأخضر، لم تعد هناك طريقة لصنع قلاية بندورة... هل سنعيش من دون قلاية البندورة؟ ربما نستطيع... الصمود لا يحتاج إلى قلاية بندورة.

كشك الدخان حمل خشبه ومشى نحو «المناطق الآمنة». ستفقد المنطقة مزاجها الآن، سيصبح الدخان قضية رأي عام. ربما لن يوافق أحد على المضي في المعركة من دون نيكوتين، لكننا سنتدبر الأمر ونجد طريقة جديدة لحرق خوفنا. سنصمد من دون نيكوتين على الأغلب... المياه بدأت تجف، لقد قصف مبنى البلدية في ضربة صاروخية هزت آبار المدينة الظمأى. لقد غادرت المياه هي الأخرى، بائع المياه على حماره ترك المدينة، ضرب الحمار بعصا غليظة ليسرع نحو «المناطق الآمنة».

عليك أن تعدو الآن عشرات الأمتار لتجد حماراً آخر يصب المياه في غالونك الفارغ. الغالون الذي أملكه ثُقب جانبه فلا يمكنه حمل الماء. لا مياه في المدينة الصامدة، كما قُتل حمار آخر لم يقدر على إكمال المسافة بحمله الثقيل، النزوح ثقيل ثقيل جداً، الحمار يعلم ذلك، لكنها العصا التي تجيد الإقناع بخفة الصمود. العطش فرض عين، والموت فرض عين كما الصمود فرض عين... هكذا تقول المدينة النازحة قبل موتها بوجع ونيف.

أخيراً، تخلى صاحب مكتب الاتصالات في الحارة الصغيرة عن صموده، سيغادر هو أيضاً إلى المناطق الآمنة وسنبقى من دون اتصال بالعالم الخارجي، لن يعرف أحد عن اتجاه الصاروخ، عن فكرة الموت في رؤوسنا التي تصفر مع الطائرة الزنانة التي لا تصمت. سينسى العالم ما نحن فيه لعدة أيام إلى أن نموت، سيُخرجون صورتك ويهللون للبطل الصامد... إنها القضية الأسمى هنا. الصمود أو عدمه؛ الموت صك تأكيد لا جدال فيه أنك بطل صامد. تذكر ذلك جيداً قبل أن تفكر في المغادرة أيضاً.

بقيتُ كآخر الموتى، آسفة كآخر الصامدين في الحارة النازحة. أصبحت الريح تقلد الطائرة الزنانة في صفيرها... قالت جارتي وهي تبكي وتلملم آخر أغراضها: لا تبقي طويلاً أنت وأطفالك، وتعالي عندنا، المكان آمِن. أردت أن أعرف هل تصدق فعلاً أن هناك مكاناً آمناً في البلاد المنكوبة... أم أنها حلاوة الروح تهدهد الوجع لحظة الفقد، ألا تعلم أنّ مغادرة البيوت فقدٌ كما فقدُ الروح تماماً؟

رسائل التهديد بالمغادرة لا تتوقف... الصوت برتابته المقلقة تضطر إلى سماعه إلى نهاية الأسطوانة رغم أنك حفظتها غيباً، لكنك تريد أن تتبين هل هناك اكتشاف جديد سيُعلَن قد يجعلك تتخذ قرارك من دون تردد... سنبيت ليلة أخرى في الحارة الفارغة لنعرف ماذا يخبئ الغد، كان هذا قراراً بأغلبية الأصوات الصغيرة حولي التي تدعي الصمود، تعلّمنا دائماً أنّ الخوف عيب، لكنّ المعلم دائماً كان أكثر خوفاً منا جميعاً، ويبيعنا نصوصه الجاهزة المكتوبة بخط عربي جميل بسعر مغرٍ... إنّه فن التسويق لعلمه الذي لا يعلمه.

«يمّة سامعة؟»... قالت ابنتي ميار والقلق في صوتها: «في صوت حد بصرخ». كانت الشمس أيضاً تغادر... هل تعرف الشمس معنى النزوح؟ طرأ علي السؤال هنا! كانت جارتنا تستنجد بصوت خائف. ألم تغادر قبل ساعات لماذا عادت؟ هل توقف الاجتياح، أم أنها لم تعد تريد النزوح وجاءت لتؤنس وحشة بيتها؟ أخرجت رأسي من الشباك أو ما تبقى من الشباك لاستكشاف الأمر... «شو في يا خضرة مالك بتصرخي؟» قلت لها وأنا أراها تجري وتنظر في كل الاتجاهات في مساحة بيتها المكشوفة لي من حيث أقف. «حرامي والله حرامي... رجعت بالصدفة آخد شنطة أوراقنا نسيتها لقيته بنطّ على البيت».

هذا ما حدث. كلّ المدينة حملت موتها، ومشت نحو قبور لا تعرفها، هنا حتى الجثث تخاف يا صديقي

هنا حدث دوي انفجار كبير في المنطقة فتفرق خوفها وخوفي في اتجاهات كثيرة ولم أسأل ولم تسأل... اختفت جارتي داخل منزلها وأدخلتُ رأسي المشتت لأنظر إلى أطفالي المعلقة عيونهم بفمي... على قول شيء... هل هناك قصة تقال. يبدو أن الأصوات تاهت داخل رؤوسهم كما فعلت في رأسي... ينتظرون كلمة لتتفرق أسئلتهم من دون إلحاح. «في حرامي وفي قصف قريب منا» قلتها بكل بساطة. «علينا المغادرة» قال مصعب بحزم.

لم أستطع المجادلة حتى عادة الصمود التي تعلمتها في وقت سابق لم تعد لها حجة هي أيضاً للبقاء داخل مخيم خالٍ تماماً من كلّ شيء إلّا من لص يبحث عن رزقه ما قبل الأخير على بيت غادره أهله المنكوبون. إنّها البلاد المنكوبة لا غرابة. «بدنا خيمة لنطلع» قال محمود وهو يمسك بطنه ويحاول ربطه ليسكت الوجع. ردّ عليه مصعب: «في عند الطيارة ببيعو خيم بدي أروح مشي لأشتري خيمة إلنا لأنه حتى حمار ما ضايل بالمنطقة يوصلنا». بدأت رحلة البحث عن خيمة في المناطق التي لم يهجرها أهلها بعد... كان عليّ أن أترك أبنائي وحدهم في المكان وأخرج للبحث عن خيمة أنا ومصعب... الصعوبة في الترك والبقاء أصبحت سواسية. سمعت أن هناك من يملك خياماً تُوزَّعُ مساعداتٍ، طرقت كل الأبواب في ساعات الظهيرة الحارقة لأجد خيمة نبيت فيها ونقضي أيامنا في المكان الذي نجهل أين هو، في «المناطق الآمنة» كما يقال عنها في رسائل التهديد والنزوح.

الأبواب التي طرقتها إما أن أهلها غادروا وإما أنهم ظنوا أنّ للحرب ريعاً، وهم حاصدوه، ولا نصيب لنا إلّا بأرض القمح المحروق. «ما في خيم». عدت بخيبتي... الجميع أغلق أبوابه ونوافذه وجحر الفأر الذي كان يخبئ فيه جبن الحرب، حتى إنني لم أجد الجبن - أقصد الخيام- في السوق لشرائها. كان عليّ أن أتدبر أمري من دون جبنة - أقصد خيمة. «يا له من خطأ معاد قد يزعج الفئران».

اشترينا شادراً من النايلون، وبعض ألواح الخشب، هذا ما وجدناه. أمسكت أغطية البيت وأغطية الفراش عندي والملابس التي لن آخذها معي في رحلة النزوح، وقلت لأطفالي لنتدبر أمرنا في ما هو موجود الآن. بدأنا بتكسير ما تبقى لدينا من أشياء تحتوي على أخشاب لنستعين بها في صناعة عريشة والباقي ندّخره لإشعال النار وصناعة الطعام والشاي، بديلاً للنيكوتين... النيكوتين أمر خلقه الله لتتصالح اللعنات داخل فمك. أنت بين خيارين إما أن تترك أغراضك في المكان ولن تعود لتجدها، ففي كلّ الأحوال ستذهب مقصوفة أو مسروقة، وإما أن تأخذها معك قطعاً تستطيع الاستفادة منها قدر المستطاع، وكذلك ستفقد ما ادخرته شهوراً طوالاً وربما سنوات لتستطيع شراءه، حيث ستجد نفسك تكسره من دون أن تفهم ما هو الهدف الذي سعيت له أو انتهيت عنده طول حياتك.

سألني أحدهم من خلف بابه: «أين خيمتك الأولى؟» قلت: «لقد قدمتها لمن احتاج إليها في وقت كنت أجد مكاناً يؤويني غيرها». رد: «يا لك من ساذجة، كان عليك ادخار خيمة أو اثنتين لهذا الوقت. لا أستطيع مساعدتك الآن لا مجال لتوزيع خيام»... السذاجة نوع من أنواع التحرر من عبء محاسبة النفس على فجورها في الأخذ وفي العطاء، أما التنكر للآخر وقت الحاجة فهو العبء الذي لا يمكن حمله.

محمود يقول: «أهم اشي يكون في حمام». محمود يقضي معظم يومه داخل الحمام بسبب حالته الصحية. إذاً خيمته دورة مياه، دورة المياه التي تحتاج إلى حرب أخرى لتوفيرها. تساءلت كثيراً: «كيف يكون الصمود وأنت تحفر في الرمال لتقضي حاجتك في التبول في منتصف الشارع».

جمعنا ما نحتاج إليه أو ما لا نحتاج إليه، لم أعد أعلم ما الذي نحتاج إليه وأنا لم أستطع توفير خيمة لتكون بيتاً يؤوينا وهي أشد احتياجاتنا. الساعة السادسة صباحاً بعد أسبوع من اجتياح المناطق الشرقية في رفح أنزلت أنا وأطفالي كلّ ما انتقيناه للنزوح به إلى المجهول، أغلقت الأبواب كلها جيداً من دون أن أترك ثغرات نصف مفتوحة خلفي. تذكرت لعبة كانت قد طرحتها علينا مدرسة العلوم في المدرسة: «إن ذهبت إلى جزيرة نائية في قارب صغير. فلديك هنا عشرة أشياء فقط يمكنك اختيارها تساعدك على الصمود لمدة يومين حتى تأتيك فرق الإنقاذ»... كلّ طالبة اختارت شيئاً ظنته مهماً للصمود، في الخيارات كان هناك عود ثقاب وزجاجة نبيذ... كانت هذه حصتي في قارب النجاة. كلّ ذلك وصوت الفكرة تصارع صوت القصف حولنا داخل جبهتي من دون أن يلهث أحدهما.

كانت أختي زينب تعلم أن لا وجود لـ«أبو رجل مسلوخة» خلف الباب، لكنّها كانت تخافه أيضاً، وأرادت أن تشاركني خوفها أو أنها لم تكن تريد أن تكون الخائفة الوحيدة في العتمة. شعرتْ بذلك عندما قاربت على الموت من الحمّى. بكت بصوت عالٍ لكنّها لم تكن تبكيني، بل تبكي وحدتها إذا ما متّ أنا.

عمل للفنانة الفلسطينية رغدة أبو زيتون

أحمد عاشور
كاتب

قصة معقدة مع الوقت

كيف يمر الوقت؟ كيف يُحسب؟ هل بالدقائق أم بقطرات الدم؟

لا أجدُ إجابةً لذلك، يعنيني مشهد طفلٍ صغيرٍ يركب المرجيحة وينتقل بسرعته القصوى منْ أسفل إلى أعلى، متحكماً في الزمن ومتحكماً في ما يراه، يمرنُ نفسهُ على النسيانِ إن قفز إلى الأعلى، وعلى التذكر إن هبط بأرجوحتهِ، وهنا يفقدُ الوقت قيمته. أدركتُ هذه الإجابة حين انتقل إلى العيشِ في خيمتنا، ابن أخي محمود ذو الأربع سنوات بعد أن أخطأتهُ شظايا الصاروخ هو وعائلته بتفاصيل قد لا تتكرر مرتين، كأن يغيّر مكان نومهِ قبل الحادث بدقائق باحثاً عن النوم على صدر أبيهِ فيحميهُ ذلك من شظايا الصاروخ التي سقطت في مكان نومهِ، وأحالت غرفته الصغيرة إلى عالمٍ رمادي لا شريك فيه إلّا الغبار والضباب النّاتج من تحطم الحجارة، تمشي داخل الضباب ماداً يديك أمامك تتحسس المكان وتبحث عن أفراد عائلتك وكأنك قد فقدت ما هو أكثر من بصرك، كأنك غرقت في البحر وتُحرك يديك بلا جدوى باحثاً عن ما بعد الماء الذي لا ينتهي.

يغادرُ محمود الخيمة عند السادسة صباحاً، يستيقظُ محمود مبكراً، لا يتحدث ويبقى شارد الذهن، يجدُ ضالتهُ في اللعبة التي يتأرجحُ فيها جسده الصغير ويقولُ فيها كل شتائمهُ الصغيرة دون أن ينهرهُ أحد، لم تكن هذه المرة الأولى التي ينجو فيها محمود من القصف، فقد نجا مراتٍ أخرى حين كان يرافق والدهُ في مشاوير قصيرة بالسيارة فكانت تسقط القذائف أمامهم أو بجانبهم، وكان قد جرب النجاة مصادفةً حين غادر برفقة عائلته بيت العائلة في تل الهوى ساعةً واحدة قبل ذلك القصف المجنون الذي أودى بحياة أطفالٍ في مثل عمرهِ، كانوا جيراناً صرخوا صرخات الحياة الأولى معاً وسمع كل منهما الآخر لأن الجدران التي سقطت كانت لا يفصلها إلّا أمتار قليلة، وحرمتهم الحرب الذهاب معاً إلى المدرسة، وقضت على فرضية أن يصبحوا أصدقاء.

■■■

كيفُ يمرُّ الوقتُ لشخصٍ مثلي فرضت عليهِ الحرب أن يعيش بعيداً عن أسرته الصغيرة حيث قادهم النزوح المتكرر إلى تجربة نزوحٍ جديدة خارج البلاد، فيما بقيتُ أنا هنا معَ من تبقى من عائلتي، ولأستعير إجاباتٍ أكثرَ حلماً مما يفترض أستخدمُ ذات الحيلة وأجلسُ إلى جانب مرجيحة الأولاد حين ينامون ويحل الليل وأستخدمها لوضع بعض مقتنياتي الصغيرة وأحركها كبندول ساعة قديمة وأظلُّ أراقبها تتحركُ ببطء يزدادُ حتى تتوقف، ويكونُ هذا الوقت هو حلّي للنسيان أو للشرود للحظة من كل ما يحدث والتوحد مع الليل.

في الليل تتضاءل احتمالات الموت، فإن أتى، سيأتي إليك في خيمتك، وسيسمع صوتَه في هدوء الليل كثيرون، سيذكرونك وسيقولون إنّ شخصاً ما في مكانٍ ما قد زارهُ ضيفٌ ثقيلٌ نسمعُ صوتهُ ونرى وهج ضوئه في وسط العتمة، وستستغرقُ سيارةُ الإسعافِ وقتاً أقل حتى تصل، إن كان لوصولها داعٍ، ولأنك في خيمة وتجلس بجانب أرجوحةً أطفال، فلن يستدعي ذلك معدات حفر وبناء لإزالة ركام غير موجود عن جسدك.

■■■

يخطرُ لي عند الجلوس في هذا المكان الاتصال بصديقي الذي قد يجلسُ الآنَ في ذات المكان الذي حدثني عنهُ مرةً على سطح غرفة يعيش فيها هو وعائلته المكونة من أفرادٍ كثر، ويختار الصعود في كل ليلة إلى سطح هذه الغرفة حتى لو لم يكن هناك طريق سهل للصعود، لأن سطح الغرفة هو المكان الوحيد الذي لا يشاركهُ فيهِ أحد، على الأقل ليس بسهولةٍ لا يتمناها هو بعد نهاية يوم وتفاصيلهُ التي لا نهاية لها. تجمعُ بيننا مفاعيل كثيرة في هذا الليل تجعلنا نجلسُ في المكان نفسه تقريباً، فكلانا نازحٌ الآن في المنطقة المدعوة بالمواصي، وكلانا على امتداد الشريط الساحلي لغزة في منطقة ما بين ساحل المنطقة الوسطى وساحل مدينة خانيونس، ولو أخذنا خطاً عمودياً لامتد بيننا دون أي انحراف، وهو الخط نفسه البادي أمامنا واضحاً في السماء الذي تخطهُ الطائرة، وحينها أخبرهُ أو يفعلُ هو ويخبرني بأن طائرة ما من نوع كذا ستراها بعد قليل أو تراها الآن بالفعل، كيف يبدو حجمها من زاويتك وكيف يسمعُ كلانا صوتها في هذه اللحظة التي تتوسطُ بها الطائرة ليلنا!

■■■

في الليل تتضاءل احتمالات الموت، فإن أتى، سيأتي إليك في خيمتك، وسيسمع صوتَه في هدوء الليل كثيرون

يعاني أهل غزة منذ عقود من صوت ما يُدعى الزنانة، وهي طائرة مسيَّرة مهمتها غالباً التجسس والتصوير، وفي هذه الحرب ظهرت أنواع مختلفة منها، بل ظهرت طائرات بجنسيات مختلفة في هذه السماء الصغيرة، يجمعُ بينها كلها صوت الضجيج الذي يشبهُ ما يُستخدَم أداةَ تعذيب في سجون القمع، صوت أزيز مستمر لا ينقطع، تزيدُ من وحشته قماشة الخيمة حيثُ لا موانع بينهُ وبين أذنيك ورأسك، ولأنّ هذا الاحتلال فاشيّ وبلا قلب وبرأس وحش، فإنّ بعض الأنواع الجديدة من هذه الطائرات تستخدم صوت أطفال يبكون إلى جانب صوت محركها المزعج، ويتملكنا العجز من تحليل كل هذه القسوة والسبب وراء هذه السادية في توظيف أصوات الأطفال الباكية أداةً.

وحين أسأل صديقي إن كان يخشى من ردة فعل من يقود الطائرة حين يصور شخصاً مثلهُ على سطح غرفة في وسط هذا الليل، فيقول لي: لا أخاف، لأنهم سيقولون إني مجنون، وبهذا يكون هدفهم قد تحقق.

■■■

لا توجد صورة واحدة قديمة تجمعنا تصلحُ لاستخدامها الآن، كلُّ منا قد تحول إلى كائن آخر، نَصفُ بعضنا أحياناً بـ «الزومبي» لأ شكلنا الخارجي الشكل نفسه، ولا ذاكرتنا تعمل بذات الطريقة، ولا نستطيع التمييز بين الضحك والبكاء. فقد تبكي تعبيراً عن موقف مضحك تغالبك الدموع وأنت تضحك، ويغالبك الضحك مرات كثيرة في حين يفترض بك أن تبكي فيه. هذا ما تفعلهُ بنا الحرب ويفعلهُ بنا الانتظار، هذا ما يحدثُ وأنت تطارد الذباب الذي يأتي لمهاجمتك في الخيمة صباحاً حيث لا باب أو نافذة، وتفكرُ في من فكّر أول مرة في وضع الشبك خلف النافذة الذي تفتحُ لمنع دخول الحشرات، هل جرّب العيش في خيمة قبل أن يسكن بيتهُ؟ وحين يبدأ سطوع ضوء الشمس في وجهك صباحاً لأن القماشة البيضاء لا تمنعهُ عنك ولا تمنع نفحات الهواء الخماسيني الذي يزور الخيام قبل غيرها، حين يهبّ في منطقة مفتوحة زراعية مثل منطقة المواصي التي لا تحتوي على أي خدمات أو بنى تحتية تعينك على نقل المياه وعلى شعورك بآدميتك حين تحتاج إلى استخدام مرافق صحية.

الحياة في خيمة والعودة إليها على امتداد أجيال ما بين النكبتين، أو النكبة والإبادة، وآلاف الأطفال الذين قضوا أو عانوا كلَّ هذه الويلات... تستدعي ملايين الأسئلة عن كيف حدث هذا كلهُ!

حزيران/ يونيو 2024